

المقالة

تجربة الاستلاب

ادوارد لند

كانت سيارة الشرطة قد بدأت تغادر مدينة أفله على طريق بisan المؤدية الى مسكنى الجديد . الماء المنعش على جانبي الطريق يرش النبات الاخضر ، ندى في قلب الصيف . وفجأة اذا بالرجل الذي يشاركتي حيز السيارة الضيق ، الرجل الذي يجلس في المقعد الامامي ويقود عربة الكلاب هذه ، يتحول الى شاعر .

وبينما كنت أنا أجلس مخلصاً لطبيعتي «المتشائلة» ، كان هو يتغنى متنشياً : «المروج اليائنة ! الخضراء عن يمينك وعن يسارك ، الخضراء في كل مكان ، لقد نفخنا الحياة في ما كان قد مات . لهذا سمنا حدود اسرائيل السابقة بالحزام الأخضر ، فعبر هذه الحدود تقع جبال مقرفة وصحراء وخلاء تناذينا فنقول : «تتدمى يا جرارات المدينة !» .

أميل حبيبي «الواقع الغريبة
في حياة سعيد أبي التحس
المتشائل»

واحدة من أهم شخصيتين في فيلم ميشيل خليفة الممتاز «الذاكرة الخصبة»^(١) هي شخصية أرملة عجوز ، فرح حاطوم ، ظلت تعيش في الناصرة بعد العام ١٩٤٨ . فترها وهي تمارس عملها في مصنع اسرائيلي لألبسة البحر ، ونراها في الأتوبيس ، كما نراها تغنى لحفيدها لينام ، ونشاهدها تطهو وتغسل . ويرغم أن الفيلم يصف أيساخاجة سحر خليفة العلامة في الضفة الغربية - فهي كاتبة قصة شابة ومعروفة كما أنها مدرسة من «نابلس - الا ان للسيدة العجوز حضوراً يلاحق المفترج حتى النهاية . وميشيل خليفة حريص على بزوغ قوة السيدة تدريجياً . فهو لا ينساق وراء خطابة كان يمكن لوضع السيدة أو لوضعه كمواطن لها أن يبررها . فهو ، على سبيل المثال ، لم يصور حياتها اليومية وكأنها تجري بشكل مباشر أمام

خلفية من مشاهد السيطرة الاسرائيلية . ونادراً ما نرى الجنود الاسرائيليين ، ولا نرى أبداً المناضلين الفلسطينيين . حتى سحر خليفة نفسها ، وهي أكثر تسيساً وأقدر على التعبير ، تصف نفسها متهكمة كمناضلة ، وعندما تفعل ، يقاوم ميشيل خليفة اغراء ابراز مغزى مقولتها بأن ينقل المشهد الى المظاهرات الفلسطينية ، وحرق الاطارات ، وقذف الحجارة ، وما الى ذلك .

والتجربة المحورية في الفيلم هي ابراز علاقة السيدة العجوز بالأرض . ويتم ذلك في مشهدتين متراقبتين . نراها في نقاش مع أولادها البالغين ، كلّاهمما يحاول اقناعها ببيع أرض تملّكها وان كان الاسرائيليون «استعادوا ملكيتها» . وجّه الملكية ما زالت معها ، برغم انها في تعرّف تماماً أنها مجرد قطعة من الورق . ويخبرها ولداتها ان الاستشارة القانونية اقنعتهما بأنه في استطاعتها أن تبيع الأرض لمستأجرتها الحاليين ، برغم أن الاسرائيليين انتزعوا ملكيتها : ومن الواضح ان هناك من يريد أن يضفي شرعية على سلب ارضها بمنحها مبلغاً من المال في مقابل حجّة نهاية بالملكية .

اما هي فترفض رفضاً باتاً . امرأة ضخمة ، عريضة الوجه . تجلس كالصخر الى مائدة المطبخ ، غير متأثرة بمنطق رغد العيش وراحة البال الذي يحاولون اقناعها به . فتقول : كلا وكلا : أريد أن احتفظ بالارض . فيجيبان : ولكنك لا تمتلكينها بالفعل : خذِي المال وعيشي في بحبوحة ، وتُجِبُ هي ساهمة ويتاثر : الأرض ليست معي الآن ، ولكن من يدرى ما قد يحدث ؟ نحن هنا من قبل ، ثم جاء اليهود ، وسيأتي غيرهم من بعدهم . الأرض لي . أنا سأموت يوماً . أما الأرض فستبقى هنا بعض النظر عن يائي ومن يذهب .

هذا منطق يستعصي فهمه على مستوى معين . ولكنه يرضيها تماماً على مستوى آخر .

وفيما بعد يذهبون بفرح لرؤيه أرضها لأول مرة في حياتها . وقد تبدو هذه المسألة غريبة ، ولكن ميشيل خليفة شرح لي أنه ليس من النادر ان يحصل هذا لامرأة من جيل فرح ، كان زوجها هو الذي يملك الأرض ، ويرعاها ، ثم تركها لها بعد مماته . وعندما ورثتها كانت بالفعل قد سلبت ايها .

ونجح خليفة باعجاز في تسجيل هذه الزيارة الأولى ، وكانت النتيجة مذهلة . نرى فرح تخطو في الحقل باستحياء ، ثم تدور في بطيء فاتحة ذراعيها وعلى وجهها نظرة طمأنينة متعجبة . لا نرى ولو بادرة الزهو بالملكية . فالفيلم يسجل بلا طقطنة حقيقة انها هنا على ارضها ، وان الأرض هي أيضاً هنا . أما عن الظروف التي وقعت بين هاتين الحقيقتين ، فانا نذكر الحجّة الرسمية التي لا قيمة لها وتملك الاسرائيليين للارض ، نذكرها ولكنها غير مرئية . ونعي فوراً بأن ما نراه على الشاشة هو ذاك فحسب . أي صورة تجعل العلاقة بين الفلسطيني الفرد وفلسطين الأرض ممكناً . ثم يختفي المشهد .

وجود سحر في الفيلم ليس بالوجود الآسي ، أو الصامت على الاطلاق . ويرغم تناقضها ، والاطار المباشر لها باعتبارها امرأة مطلقة وعاملة في مدينة مسلمة في اغليتها ، وتقليدية كمدينة نابلس ، إلا انها راسخة في مكانها . صحيح أن الاحتلال الإسرائيلي ظاهر في الفيلم بالقدر الذي يذكرنا بحقيقةه ، ولكن حياة سحر تسير مجرها حيث عاشت دائما . وهي لا تنتهي الى جيل اصغر من جيل فرح فحسب ، ولكنها أيضا أكثر وعياً بنفسها ككاميرا وكفلسطينية . حديثها تحليلي وساخر في آن واحد . ومع ذلك فهي أيضاً مستتبة ، لأن عملها ككاتبة وكاميرا وطنية يندرج في بنية السلطة الاسرائيلية المهيمنة على الصفة الغربية ، وهذه السلطة تجهض عمل سحر .

وسر تعبير عن التغريب عن التتحقق السياسي ، وبالطبع عن التتحقق الجنسي أيضا ، فقد حرمت الاثنين : الأول لأنها فلسطينية ، والثاني لأنها امرأة عربية .

نجح ميشيل خليفة ، مخرج الفيلم ، في تحقيق المواجهة الجمالية بين المترفين الفلسطينيين . والمخرج نفسه هو الشكل الثالث للاستلال . فهو يعيش في بروكسل ، ويحمل جوازاً اسرائيلياً مع أنه عربي . حاله كحال كل الفلسطينيين المبعدين ، قصته معقدة في تفاصيلها التعيسة ، ولكنها سهلة الفهم في جوهرها : فهو بلا وطن ، وبلا جنسية معترف بها رسمياً ، وبلا مستقبل سياسي باهر ، يتطلع اليه . ولأننا لا نراه في الفيلم أبداً ، ولأننا نعي بذاته في عملية ابداع وتوجيه الفيلم ، فهو اذن ليس بحضور ضمني قدر ما هو وعي خارجي حتى وإن كان غير مرئي .

وانجازه الخاص هو انه جسد بعض جوانب الواقع الفلسطيني في فيلم سينمائي ، أي في شكل دولي شائع .. وفضلاً عن ذلك ، أعطى لحياة هذه المرأة وتلك شكلًا جمالياً يرتبط في ذهن المتفرج الفلسطيني مباشرة بتجربته الشخصية للاستلال .

لكن تغريب الفلسطيني عن فلسطين الواقعة هناك مستمر ، وكوارث ١٩٨٢ لم تقلل ، وبالطبع لم تضع حداً لاندفاع عملية يبدو أن فعاليتها وقوتها تحرکها في اتجاه واحد اكتسب أصداه تخطى حدود العصر والتاريخ .

والأشياء الجميلة مثل فيلم «الذاكرة الخصبة» تسلط الأضواء على المعاناة اليومية التفصيلية الناجمة عن الاستلال . فهي تضعها في مكان يسمح للنظر برأيتها . وهي توميء إليها وتنقبس منها : كل هذا بغية وقف عجلة الاستعمار الإسرائيلي ، كالحجر الذي يعترض جريان مياه النبع . ومع ذلك فليس بين هذه الأشياء الجميلة ما يقلل من واقع الاستلال . فهي تيسر رؤية الواقع فحسب ، ويواكب ذلك خوف عميق من واقع هو الذي أدى إلى التجربة الفلسطينية الفريدة ، من ترهة وعد بلفور إلى صدمة ١٩٤٨ ، وعبر الخسائر الجديدة في ١٩٦٧ حتى دمار بيروت وصور وصيدا ، ومذابح صبرا وشاتيلا : مزيد من التشتت وتحول أكثر من

٤٠٠٠٠ فلسطيني في لبنان الى مجهول ! خط واحد فطيع يجر وراءه ملايين من الحيوانات الضائعة ، المشوهة الممسوحة : شمول له أهمية كبيرة انتوي هنا رسم خطوط خريطة .

لفقدان فلسطين ، كما لفلسطين نفسها ، بعدان : بعد مجال الواقع ، والآخر مجاله الايديولوجيا والخيال والاسقاط والفن والدين . في البعد الأول فلسطين أرض كان يعيش فيها الفلسطينيون العرب ، أرض فقدوها ، أرض يحكمها الآن آخرون ، أرض سلبت من الفلسطينيين ويعيشون فيها الآن حالة من استعمرها من الداخل . أما في البعد الثاني ، فلسطين هي مكان يكتب عنه ، يحلم به ويخطط من أجله . وهو اذن ك المجال عام ملك لكل من يدعى به حقا . وان كان لفلسطين بالنسبة للفلسطينيين وجود داخلي راسخ ، فذلك بسبب شعورهم منذ مولدهم بمولد تاريخهم فيها .اما فلسطين الأخرى فلها وجود تاريخي كحقيقة خارجية . فلسطين لها وجود بالنسبة للصليبي وللمستعمر وللحاج بفضل وجودها خارج الواقع المعاش لسكانها . قليل هي الامكنته التي تتمتع بتشابك هذين البعدين الذي يفرض نفسه . واليوم ، كما بين فيلم ميشيل خليفة ، يكاد الفلسطينيون يلمسون بعد الخارجى كما يلمسون بعدهم الخاص . وهذا في آن واحد مقاييس لمدى الاستلال الذي وقع بهم كما هو مقاييس لتوصلهم مؤخرا الى ما حرموا منه تاريخيا . الفلسطينيون يمكنهم الآن قراءة تاريخهم في مكان آخر ، حتى الشمالة ، كما سأفعل أنا هنا . فقد برع تاريخ مصاب بجنون العظمة ، خلق في داخل الفلسطينيين هذه التزعة التفسيرية المستمرة للشك الذي لا يكفي أبدا ولا يمكن اشباعه بتاتا .

ومع ذلك فهي لحظة جديدة في التاريخ الفلسطيني ، تشابك فيها المشكلات كما تتخللها فرصة سياسية وثقافية صعبة وان كانت ايجابية . وانتاج الوثائق الثقافية من نوع فيلم « الذكرة الخصبة » لميشيل خليفة يعتبر بمثابة الخطوط الأولية لها .

سأبدأ بوصف الخطوط العربية للتاريخ عام وايديولوجي لفلسطين تقع احداثه خارج فلسطين ، تاريخ يبنيت من محظوظ وغياب وصمت الفلسطينيين الأصليين .

وذروة هذا المنحني التاريخي هو استلال الفلسطينيين الفعلي منذ العام ١٩٤٨ . وسأحاول بعد ذلك أن أبين كيف تطورت هذه القوة المعاكسة منطلقة من الواقع التاريخي المعاش للفلسطينيين الأصليين (بسبب طبيعة ديناميتهما الفكرية) . وهي قوة مرتبطة ارتباطا مباشرا بالاطار المحيط وبالوسيلة المستخدمة وينجاحات ايديولوجية الاستلال . وينطلق هذا التيار المعاكس بقوة في اللحظة نفسها التي يخلق فيها استلال الفلسطينيين مجتمعوا تاريخيا من العذاب . ومن الناقض ان ينضج هذا المجتمع في لحظات كهذه ، اثر الخروج من بيروت ، حيث نستطيع لأول مرة في تاريخنا أن نرى أنفسنا ونحن ومن يضطهدونا معا على المسرح العالمي التاريخي نفسه ، نرى انفسنا وقد نجحوا في قمعنا ، ولكن لم ينجحوا في القضاء

علينا . وفي مثل هذه اللحظة - وهي اللحظة التي تحاول هذه الدراسة تجسيدها - فشمة « طريقة أخرى للسرد » (الفكرة الموحية لجون برجر John Berger) . فلم يعد الاستلاب حقيقة هامدة ، بل أصبح تجربة قابلة للمساءلة الثقافية والفكيرية .

ولا بد من تحديد مكمن هذه المسألة . لا شك انها تجربة موضع صراع في فلسطين . اذ ان اجيالاً متعددة من الفلسطينيين قاومت الطرد والرقابة والاستيلاء على الارض والاعتقال والتعذيب والموت . ولكن ما هذه الا ساحة واحدة من ساحات الصراع . والساحة الأخرى التي لا تقل دلالته في مجال حل الصراع الفلسطيني / الاسرائيلي هي ساحة تقاطع الافكار والآيديولوجيات والقيم والرؤى من ناحية ، والبشر والأرض من ناحية أخرى ، وهذه الساحة الأخيرة هي ما سأتناوله هنا بشكل محدود وانتقائي للغاية ، وأقصد أن تكون الانطباعات التي اوردها جزءاً من الصراع المشار اليه آنفاً ، لا مجرد قائمة سلبية .

جانب مهم ، وان لم يكن الوحيد ، من جوانب الصهيونية والذي يهم الفلسطينيين بالذات هو أن « حركة التحرر الوطني لليهود » (كما سميت) بدأت بمفهوم استعماري في أراض يسكنها شعب آخر . والاستلاب الذي نتج عن هذه الحركة مسألة لا تؤخذ في الاعتبار على الاطلاق . وأثار هذا الموقف مستمرة حتى يومنا هذا عندما نرى ، على سبيل المثال ، العالم يصفق لاسرائيل لأنها شكلت لجنة محايدة للتحقيق في مذابح صبرا وشاتيلا ، وبهلهل العالم لعودة الصهيونية لمثاليتها الأصلية . وساد هذا المنطلق لسنوات طويلة دون ان يتهدأ احد . أما كونه يناقش اليوم بشدة ، وكون العديد من غير الفلسطينيين يرفضون الخضوع لهذا المنطق ، فهذا مؤشر لمدى تقدم الجهد التي بذلت من اجل حق تقرير المصير الفلسطيني . لم يعد بالامكان ان يفترض ان الفلسطينيين سيقبلون القمع صاغرين . أصبح من الممكن اذن إعادة تقييم التجربة الفلسطينية ، لا من منطلق ارباحها وخسائرها الملحوظة فحسب ، ولكن أيضاً بمفهوم اقتصر في الماضي على الأوروبيين وعلى يهود اوروبا وعلى انصار الصهيونية ، وهذا هو التقييم المقصود هنا ، وأنا أعي تماماً أن هذا المفهوم بتعدياته ودخوله في مجالات لم تكن متاحة للفلسطينيين من قبل ، ويوعيه المتزايد بـ « آخر » متعدد ، لم يكن ليتأتي لو لا هذه الارادة الجماعية للمقاومة التي ادخلتها الشعب الفلسطيني في ساحة ظلت لفترات طويلة قصراً على غيرهم .



لنعد بخطانا اذن انطلاقاً من بعض الاحداث الاخيرة . ولنتنظر الى الغضب الذي اجتاح العالم بسبب مذابح صبرا وشاتيلا . في الولايات المتحدة مثلاً ، كانت هناك بعض المحاولات لربط هذه المذابح بتاريخ اسرائيل الطويل ، وبالتاريخ الصهيوني السابق على اقامة اسرائيل في ارهاب المدنيين الفلسطينيين . ولكن هذه المحاولات كانت محدودة النطاق ، وأعوزتها

المعلومات المفصلة : بينما تمت محاولات اخرى كتب لها النجاح ، مؤداتها ان هذه الظروف أكدت الطبيعة الديموقراطية لاسرائيل . وهكذا فسرت مظاهرات الاحتجاج على المذابح التي اجتاحت تل أبيب والقدس باعتبارها تسفر عن « روح اسرائيل » . وتبارى المعلقون في « اطراء عار اسرائيل » (نوريا بابلسك ، ١١ اكتوبر ، ١٩٨٢) .

وسرعان ما صورت المذابح على أنها حدث مجاله الوحيد في الضمير اليهودي - الاسرائيلي . ومع مرور الوقت ، اذا بالقتل الحقيقي الذي ساد ازاء مغامرة اسرائيل في لبنان يتحول لا الى فحص تاريخي عام لسياسة اسرائيل تجاه الفلسطينيين ، ولكن الى تأكيد عام على « انسانية » اسرائيل ، بعض النظر عن كون هذه « الانسانية » قد انسحبت على الاسرائيليين واليهود دون غيرهم .

ولا داعي للتقليل من اهمية تحرك ضمائر اليهود في اسرائيل وفي الغرب ، ولكنني اشدد مع ذلك في قولي انه حتى عندما يتم التعبير عن الندم على فظائع تبدو مسؤولة اسرائيل فيها واضحة ، نشعر بأن هذا الندم يخلو تماما من أي مضمون فلسطيني . فالفلسطينيون مجموعة لا تتميز بشيء محدد ، سوى أنها تعارض اسرائيل بشكل لا تاريخي وشكل مجرد تماما . وعندما يموت بعض اعضاء هذه المجموعة في ظروف بشعة ، نجد في البداية وعيا متربدا ، لدى اليهود ولدى الغربيين ، بأن دم مجموعة من البشر قد أهدر . ولكن لا نجد صورة ملموسة للفلسطينيين تظهر في هذا الوعي ، فإذا باليهود يتحولون من هذا الوعي الى ثقة مجدها فيما هو مأثور ومؤكد ، ألا وهو مزايا اسرائيل الاخلاقية . فتحتل الفكرة الثانية مكان الانطباع المقلق الاول بأن ثمة خطأ فظيعا قد ارتكب . حتى عندما يكتب كبار الصحفيين والمعلقين نقدا لسياسة اسرائيل ازاء الفلسطينيين فإنهم يستندون الى شواهد اسرائيلية او يهودية بحتة . فلما نرى اشارة الى مصدر عربي ، او الى تصريح او حجة مقنعة على لسان فلسطيني . يستجوبون الاسرائيليين المعارضين باستفاضة ، ويقتبسون من مقالات صحفيي المعارضة للتدليل على سلامته اسرائيل وصحتها (مثال جدير بالتسجيل هو « تأملات في مسألة لبنان » بقلم جاكوبو تيمberman^(٢)). ونجد في كل هذه الامور ، ضمنا ، ان الفلسطيني ومصيره وظروفه الحالية التي هي المحك ، أقل مصداقية وأقل وضوحا ، أي أقل حقيقة من الاسرائيلي والغربي واليهودي ، وهي ظاهرة عصرية كانت لتبدو غريبة وغير مفهومة لو لم نعرف نظرة أجيال من الاوروبيين للعالم غير الأوروبي . وقد أثبتت عالم الانثروبولوجيا يوهانس فابيان بشكل قاطع في كتابه « الزمن والآخر » : كيف تصنع الانثروبولوجيا موضوعها « ان انكار الوجود الزمني للآخر ، عامل أساسي في وصف هذا الآخر . بل ان فابيان يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، فيبين أن بعض فروع العلم ، مثل الانثروبولوجيا ، تستند في وجودها على هذا الانكار « للاخر ». وهذا التقابل بين المعرفة بالآخر ، ابان فترات التوسع الاستعماري الأوروبي ، وبين ازالة الآخر بالقمع وبالاخضاع او بالاستيعاب الصامت هو الذي دخل في تشكيل ما نسميه بالروح المميزة المعاصرة الاجتماعية ،

للباحث في الواقع الموضوعي ، وهي الروح السائدة في الصحافة وفي العلوم الاجتماعية .
غزو امريكا بقلم تزفيتان تودوروف ، « والوحوش المفترى عليها » بقلم مارتا بيتر ، و « افريقيا التي لم تكن ابدا » بقلم جابلو وهاموند : كلها أعمال تلقى الضوء على هذا التقابل بأشكال مختلفة ، كما تبين كيف أن المعرفة « بالآخر » أبعد ما تكون عن الخيال ، (لأنها تشكل بالتكرار « الآخر » المفروض انه قيد البحث) ، وان هذه المعرفة تتكتسب صلابة ومكانة وفعالية تضعها في مصاف الممارسة الاجتماعية الثقافية الأصلية المتعارف عليها .

ولكن علينا الا ننسى ان الملايين من السكان الاصليين لهذه الاماكن النائية كانوا يتعلذبون ، ويسمتون في هذا الوقت ، دون أن يستمع لاصواتهم ، ويشعر بهم أحد . وباختصار ، فإنه لم يكتف بالحد من وجودهمقدر ما تم توظيف هذا الوجود لخدمة اغراض لا علاقة لها بهم ، دون أن يجدو أثر لتدخل من جانبهم الا لاما .

هكذا ، فإن فلسطين بالنسبة للأوروبيين لم تكن تاريخياً موطن الفلسطينيين المقيمين فيها ، وإنما كانت قبلة الحجاج . هكذا تناولها شكسبير . ففي سلسلة مسرحياته التاريخية : ريتشارد الثاني ، والجزء الاول والثاني من هنري الرابع ، يتناول اعتلاء بولينجبروك غير المشروع للعرش ، وبولينجبروك هو الذي أصبح هنري الرابع فيما بعد ، كما يتناول كيفية تدعيم أسرته المحاكمة بعد ذلك عندما استولى ابنه الامير هال على العرش كهنري الخامس . والتنافس بين هال وهوتسبور ، وهو ضمن من عارضوا أبيه ، هو الصراع السياسي الاساسي وممحور الجزء الاول والثاني من مسرحية هنري الرابع ، اما الصراع الثاني فيبين الامير هال واللهو والفساد الذي يغري به سيرجون فالستاف . وتتدخل المسرحيتين مشاهد نرى فيها المفترض الذي أصبح الملك هنري الرابع يعرب عن قلقه ازاء المشكلات التي تواجه مملكته وأسرته . وفي أكثر من مشهد يعلن انه ما ان تنتهي هذه المشاكل وتعود امور المملكة الى نصابها ، فسوف يصح الى الاراضي المقدسة . وتتوالى الحروب والخلافات ثم يموت الملك ، ويرث الامير هال الناج من أبيه بعد أن نضج واشتدع عوده ، وتستتب الامور في انجلترا . ولكن من مفارقات الدهر ان يموت هنري الرابع في قاعة القدس الواقعه في انجلترا نفسها بالطبع . وهي علامة أخرى على ان حكم هنري الرابع المختل في أساسه لا يمكن ان يتوج ببركات الحج الى فلسطين .

ومن ناحية اخرى ، فإن الامير هال الذي جاء الى العرش بشكل اسلم من أبيه ، قد ينتهي نهاية افضل من نهاية أبيه . أما الكلمات الاخيرة للملك المحضر فهي :

« اخبرني النبؤات لسنوات وسنوات

انني سأموت في القدس

وطمنت انا ولكن هيئات

إنها تعني الأرضي المقدسة

فاحملوني اذن الى هذه القاعة ، وهناك ارقدوني ،
في هذه القدس سوف تنتهي حياة هاري » .

وهو عنصر صغير يتكرر في ثلاثة مسرحيات لشكسبير . واشير انا اليه فقط لانه مقاييس لنظرية شكسبير الى مدى اعتماد الملكية الشرعية في انحصارا على فلسطين كعلامة على الرضا الالهي . والى أي حد وبأية بساطة يعتمد على مكان تحجج أهميته المسيحية كل وجود لسكانه الفلسطينيين . فلا اهمية مطلقا ل מהية الفلسطينيين . وكل من شاهد هذه المسرحيات يربط فلسطين بتوترات وصراعات وتحققات المسرحية ، تماما كما فعل شكسبير . هذا ، فيما اعتقد ، ينسحب على جمهور هذه المسرحيات اليوم أيضا كما كان الحال منذ نحو أربعين سنة . فلسطين كانت مكانا هاما وحاويا ، اللهم الا مما رغب المسيحي الاوروبي في اضافاته عليه من معان دينية ، وثقافية ، وتاريخية ، او سياسية .

بعد شكسبير بثلاثة قرون كتبت جورج اليوت روايتها الأخيرة دانييل ديروندا . والشخصية المحورية في الرواية هي الفتى ، نشأ وتربي كأي ارستقراطي انجليزي شاب ، ثم يكتشف أصله اليهودي في سن متقدمة نسبيا . وعندما يكتشف هذه الحقيقة الجديدة ، يربط مصيره بمصير حركة صهيونية ناشئة ، أي بمجموعة من اليهود يتuron الهجرة الى فلسطين . وها نحن نرى مرة أخرى أن الخيال الأوروبي المسيحي ينظر الى فلسطين باعتبارها مكانا يستخدم اساسا لاغراض غير فلسطينية . فهي مكان يدخل تماما ضمن حدود ممتلكات الارستقراطية الانجليزية ويهود اوروبا ، لا ذكر بتاتا للسكان الاصليين . وإذا ذكروا كما يحدث في رحلة الى الشرق بقلم لامارتين ، مثلا ، أو في كتاب اغراء في الفربة لمارك توين ، فهم كم مهمّل ، وشخصيات صغيرة تشير الاستعلاء او الضحك . على أية حال ، فهم لا يشكلون مجرد عقبة في مخططات أي أحد بالنسبة للفلسطينين . ولا هم دخلوا في الحسبان في المناورات السياسية ، والكنسية ، بين بريطانيا وبروسيا ، حول المسألة الرمزية المتعلقة بإنشاء اسقفية بروتستانية في القدس . ولما تم انشاؤها في ١٨٤١ ، كانت مسألة اوروبية بحتة ، ولا أهمية محلية لها على الاطلاق^(٥) .

مع ذلك ، فيرغم هذه التصورات ، ويرغم استلام السكان المحليين على صعيد عالم الخيال ، ورغم رسوخ الحقيقة في فكر سائدو ، معرفة دخيلة : فإن وجود السكان الحقيقيين ظل قائما . وإن كان السكان المحليون لم يظهروا في جل الصور الفوتوغرافية التي صورها فيirth للاماكن المقدسة في القرن التاسع عشر (حتى لا يقلل العنصر الانساني من الاستمتناع بهذه الاماكن الجليلة) ، الا انه يسمح لهم بحضور خاص في مناسبات أخرى حيث يقومون بدور شخصيات الانجيل : الأم والطفل ، أمراة من السامرة عند البئر ، رعاة يتظرون في المرج الخ ... وهذا حتى يتيسر على الاوروبي ان يلاحظ الاستمرارية على مر القرون بين سكان فلسطين قديماً وحديثاً : والصور الفوتوغرافية التي التقظها بونفيل BONFIL ، وعلقت عليها سارة

- جراهام براون SARAH GRAHAM BROWN في كتابها : الفلسطينيون ومجتمعهم ، ١٨٨٠ - ١٩٤٦ ، هي خير مثال على ما تقدم^(٦) . لم يعد بالامكان تجاهل السكان المحليين : كان لا بد ان يظهروا حتى يتمكن الوعي الأوروبي من استيعاب الحقيقة الكاملة لفلسطين . نظرة اليوم الى هذه الصور تؤلم الحس بسبب وضع الاقفین فيها ويسبب التعليقات المكتوبة بشأنها . فالفلسطينيون يقفون في اوضاع غريبة ومهينة ، والتعليقات تذكر عليهم هويتهم وتاريخهم وارتباطاتهم الاجتماعية بل وحتى اسماءهم وراء عبارة مستعارة من الانجيل .

وفي ذورة المشروع الامبرالي الاوروبي ، اكتسبت الجغرافيا اهمية اساسية ، أشار اليها كورزون CURZON ، باعتبارها «اكثر العلوم تحررا من التزعات الاقليمية» ، لأنها تبرر هذه الرغبة المحمومة في اكتشاف الاراضي الجديدة ، تمهدأ لاقتناء الاراضي الجديدة ، وهو ما اسماه كونراد CONRAD في سياق آخر «هذه الرغبة التي لا تني» . وبما أن هذه الاراضي تعيش عليها شعوب ، اذن فهذه الشعوب أيضا قابلة للاقتناء ، وان كان من الجدير بالذكر ان أهمية المعارف الجغرافية في ذرة المرحلة الامبرالية كانت تولي الاراضي مكانة تربو على مكانة الشعوب التي تعيش عليها . ومن ثم الهمية التي يوليها اللورد كورزون لعناصر الجغرافيا في خطاب ألقاه امام الجمعية الجغرافية ، عام ١٩١٢ . كل ما في خطابه يشير الى ان «المعرفة» تشمل ، وان كانت لا تميز ، سكان الاراضي التي تعتبر جديرة بالتعرف عليها جغرافيا (أي بالاستيلاء عليها من قبل قوة امبرالية) . وكورزون يتحدث بلسان من لا ينظر الى الجغرافيا نظرة اكاديمية بحثة ، فيقول :

«حدث ثورة كاملة ، لا في أساليب ومناهج تعليم الجغرافيا فحسب ، ولكن في مكانة الجغرافيا لدى الرأي العام . نحن نعتبر المعارف الجغرافية اليوم جزءاً أساسياً من المعرفة عامة . فالجغرافيا ، والجغرافيا وحدها هي التي تساعدنا على فهم حركة القوى الطبيعية ، والتوزيع السكاني ، وتقدم التجارة ، واتساع الحدود وتطور الدول والانجازات العظيمة للطاعة البشرية في كافة أشكالها . . . والجغرافيا هي علم شقيق للاقتصاد والسياسة ، فما ان نحيد عن مجال الجغرافيا ، فإذا بنا نعبر حدود علم طبقات الارض وعلم الحيوان وعلم الاجناس والكيمياء والطبيعة وكافة العلوم المرتبطة بذلك تقريراً : وكلها ادوات ضرورية للتوصيل الى الفهم الصحيح للمواطنة ، ولا غنى عنها في تشكيل رجل الحياة العامة»^(٧) .

يمكن القول ، مجازا ، ان الجغرافيا تعيد ترتيب الناس في مكونات جديدة (علم طبقات الأرض - علم الحيوان - الكيمياء والطبيعة : لا يدخل معها علم الاجتماع ، فكوزرون CURZON لا يؤمن به) ، مثلما يحدث للامة المنكبة على علم الجغرافيا : فهي تقipis عبر حدودها لتقيم حدودا جديدة . ويعبر جيرار ليكليرك GERARD LECLERC عن هذه الفكرة فيقول : « ان تحويل المساحات البعيدة الى موضوع بحث ومعرفة كان كثيرا ما يرتبط بتحول هذه المساحات الى موضوع سيطرة ، وهو في نفس الوقت مجهول يجب ان يعرف »^(٨) .

فإذا بالجغرافيا ، والمعنى المكانى ، تعيد تنظيم المجتمعات والمعنى الزمني . وهو نشاط سياسى يعتمد على الخيال ، وله اهمية جوهرية بالنسبة للظروف الحديثة للعالم المستعمر المحبط . وهو نشاط يستعين بعنصر جديد : الارض التي قال عنها جاستون باشلار GASTON BACHELARD ان دورها في عقل الانسان هو ان تمنه بارادة المقاومة ، لانها تعطيه شيئاً صلباً ليقف ضده^(٩) . فما ان يغزو الانسان أراضيه ، فإنه يمتد بنظره بعيداً عن العاصمة الى الاراضي الخارجية ، وهي اراض متاحة للامتلاك الجغرافي «أي الامبرialis» ، وبخاصة بفضل القليل من القيم الانسانية لسكانها . ويرغم ان باشلار BACHELARD لا يربط بين الوضع الخيالي لثلاثة الارض - والمقاومة - والضد ، وبين مساعي الاستعمار التاريخية - الا أنه يبدو لي شخصياً أن لا مفر من الرابط بينها .

لا أريد ان يفهم كلامي هذا على اني اقول ان الاستعمار كان اساساً مسألة اعادة ترتيب مكانة التاريخ ، والجغرافيا ، في سلم اولويات الفكر : فان تداخل عمليات التناقض الاقتصادي والسياسي بين مختلف القوميات الاروربية ، وضغط توسع المجتمعات الصناعية لها اهمية كبيرة ايضاً . ان ما اقوله هو انتا لو شئنا ان نفهم هذه المسألة الغربية : الا وهي اختفاء الفلسطينيين القاطنين فلسطين بسبب انكار وجودهم ، وهو انكار مستمر حتى اليوم بشكل قاهر بالنسبة للفلسطينيين الذين يرون جنباً الى جنب مع حقيقة وجودهم ، فلا بد من تفسير ذلك استناداً الى مفهوم الارادة القوية المفعمة بالخيال . هي ارادة تنظر الى الارض باعتبارها مقاومة لا بد ان تجتاز ، وتنظر الى سكان الارض باعتبارهم كُمّا يجب ان يتتجاهل او ان يحول الى اجناس مقهورة ، الى عبيد من خلال مفاهيم «التوزيع السكاني» ، والمشكلة الديموغرافية وما الى ذلك .

تطور هذا الواقع الذي ساد نهاية القرن التاسع عشر وواوائل القرن العشرين انطلاقاً من رؤية اوروبا الثقافية السابقة لفلسطين ، الى عنصر هام في تجربة الاستيلاب الفلسطينية القابلة للتتسجيل . وحتى وان تردد المرء في وضع شكسبير ، ومارك توين ، ولamaratin ، وجورج اليوت ، على قدم مساواة بعضهم مع البعض او مع الامبرialis الاروربية ، فإن ثمة اسماء خرى ترد الى الذهن : تشورسر CHAUCER وأنشودة رولان ، ونيرفال NERVAL ، وبليلك BLAKE ، وشاتوبيريان CHATEAU BRIAND ، وملفيلي MELVILLE ، وعشرات من الساسة الاروربيين والامريكيين كانوا جميعاً ينظرون الى فلسطين باعتبارها فكرة جغرافية مستقلة تماماً عن شعبها وجغرافيته ، ناهيك عن تاريخها المعاش وتطلعات سكانها . لا بد من التمييز بين شكسبير وبليور بالطبع . ولكن بالنسبة لسكان فلسطين كانت النتيجة في اواخر القرن العشرين واحدة بالنسبة لحياتهم . لم يستشرهم احد ، ولم يفكر احد في انهم قابلون لللاستشارة ، بالطبع لم يعتقد احد ان لهم الصلاحية الالزامية لاتخاذ قرار في شؤون تتعلق بمصير مكان يعتبر في جوهره اهم بكثير من البشر الذين يعيشون فيه فعلاً . لقد تخيلوا فلسطين ، وخططوا لها ووعدوا بها

وبتوا في شأنها من شكسبيرو إلى كامب دافيد باعتبارها فكرة محورية في الحياة الأوروبية الأمريكية ، وكانت النتيجة ما رأيناها ، وما ألقى عليه الأحداث الأخيرة ضوءاً دموياً .

دافع بلفور عن هذه الفكرة في العام ١٩١٥ عندما قال فيما يتعلق بالصهيونية (ولا شك انه كان سوف يتحدث بنفس القوة عن اية فكرة اوروبية اخرى عن فلسطين) ان هذه الفكرة سواء كانت صحيحة او خاطئة ، جيدة أم سيئة ، فجذورها ترجع إلى تقاليد قديمة جدا ، واحتياجات حالية وفي آمال مستقبله ذات أهمية أعمق واهم بكثير من زغبات وأهواء ٧٠٠،٠٠٠ عربي يعيشون اليوم في هذه الأرض العتيقة «^(١٠) .

حقا إنها فكرة جامدة ، هذا التاليه لفكرة بعض النظر عن رغبات سكان سوف تتغير حياتهم بشكل جذري ، ولأجيال طويلة . وأنا اذا اقتبست هذه الكلمات هنا ، فلم افعل ذلك لابعث تاريخا غير قابل للتغيير ، وإنما لاسجل أن الموقف الذي أدى إلى هذه الفكرة ما زال سائدا اليوم . والمسألة هنا اخبت بكثير من مجرد تجاهل مخلوقات دنيا . ليست المسألة مجرد سرقة او ضرب او تجريد السكان : فهم شيء لا يستحق حتى ان يسرق . السكان لا يمكنهم حتى ان يتهموا فكرة عن بلادهم تعتفقاً هذه الشخصيات المهمة ، حتى وان كانت شخصيات أجنبية .

يصبح اذن من البسيط نسبيا ان نرى التحول من هذه الرؤية الغربية المسيحية لفلسطين ككيان جغرافي إلى الفكرة الصهيونية . لا يمكنني ان اخوض هنا بالطبع في تاريخ مفصل للصهيونية ، ولكن يمكنني ان اتحدث عنها بشكل عام ، خاصة وان المناقشات التي تدور الان عن فلسطين في الاوساط الصهيونية ، تماما كما كان الحال في الماضي ، نادرا ما تتناول الحقيقة المحرجة ، وهي ان شعبا فلسطينيا ما زال يعيش في فلسطين وكان يعيش فيها عندما اتخذت الحركة الصهيونية في اوائل هذا القرن شعارا لها هو « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . ومن السهولة ان نعجب بمستوى الفكر والمنطق في الكتابات الصهيونية الكلاسيكية ، التي احسن تجمعيها ارثر هرتزبرج ARTHUR HERTZBERG في مجموعته الفكر الصهيونية THE ZIONIST IDEA ، ولكن الاعجاب لا يمنع الهول ازاء هذه التجاهل التام لهؤلاء الآخرين الذي يعيشون في فلسطين ، والذين لا بد وان يكونوا ، بآرائهم وحيواتهم ، وأجسادهم ، قد ادخلوا بعض الشك في نفوس المستوطنين الاولئ ^(١٧) . الواقع أن مجموعة هرتزبرج HERTZBERG تعكس ذلك تماما ، اذ يذكر ضمن صفحاته الـ ٦٣٧ ، يذكر فحسب ، ولا ينافي ابدا ، كلمة العرب نحو ست مرات ، برغم ان المجموعة بصفحاتها الـ ٦٣٧ تتعلق بارض يوجد فيها مجتمع فلسطيني عربي بالفعل .

ان الرمز المترتب على هذا السهو الغريب في عمل هرتزبرج ملح ومستمر ، وهو فيرأني عرض من اعراض شيء اخر ، ولا اقصد به نقداً حاذقاً لمؤرخ مرموق ، ومفكراً استقل

بكراه مؤخرا داخل عالم اليهودية المنظم . فقد كتب استجابة لمبادرة ریغان ، ولماذا صبرا وشاتيلا ، هجوما قويا على سياسة بیغن (في THE NEW YORK REVIEW OF BOOKS) . ولكن کم كان من المؤسف ان نرى ان هرتزبرج HERTZBERG لم يترك للفلسطينيين خيارا الا الاتحاد الفدرالي مع الأردن ، حتى قبل أن تتاح الفرصة لایة مفاوضات : فلا ذكر لتقرير المصير ، ولا في دولة ، ولا في منظمة التحرير الفلسطينية ، لا شيء سوى « التشتت » لأهل الضفة الغربية وغزة من غير قاطنيها . واعلن أن هذا حل « صهيوني كلاسيكي » . ويقصد بذلك ان الفلسطينيين لو قبلوه فإن هذا يمثل قبولا من النوع الصهيوني لـ « نصف رغيف في الواقع ». لم ير هرتزبرج جانب السخرية فيما يفعل وهو انه اقترح رفضا « صهيونيا كلاسيكيا » للتعامل مع الفلسطينيين كشعب له أية حقوق قومية في فلسطين^(۱۲) . هناك مثل اخر على « جزع » THE NEW YORK TIMES SUNDAY الصهيونية الامريكية في مقال لمارك هلبرين بال MAGAZINE وان انتقد بیغن الا انه نجح في مناقشة موضوع اسرائيل ومشكلاتها (بغية حل هذه المشاكل) دون ان يذكر الفلسطينيين ولو مرة بالاسم^(۱۳) .

كان ادموند بورك EDMUND BURKE على حق فعلا اذ قال انه من الخطأ والمستحبيل ان نقاضي شعبا باكمله ، حتى وان كان عذاب الفلسطينيين على يد الجنود الاسرائيليين ، مؤخرا ، يغري بمثل هذه المقاومة والاتهام ، الا اننا يجب ان نحترم القواعد . في الواقع هناك العديد من اليهود ، وفي مقدمتهم جولا ماجنسي ، عارضوا فكرة دولة يهودية في فلسطين ، وحاجتهم ان هذا يستعدى العرب لاسباب غنية عن البيان . كان وما زال هناك العديد من اليهود الآخرين يعتبرون القومية اليهودية الممثلة في التوسع الاسرائيلي ، وفي سياسات اسرائيل التمييزية ازاء غير اليهود ، شيئا يستحق النقد الصارم . ولكن ما يلفت الانتباه بشدة في الحركة الصهيونية منذ بدايتها الحديثة هو الاتجاه الحالي الى : (آ) تجاهل العرب كبشر . (ب) عدم ربط السياسة الصهيونية مباشرة باستمرار قمع وقشتية الفلسطينيين المحتلين والذين انشئت دولة اسرائيل على انفاظهم عام ۱۹۴۸ . (ج) قبول الاسس العتيقة لحركة منطقها - كما نسمعه على لسان قادة اسرائيل المعدلين للنظرية - لا يقبل النقد ولا الشك في صحتها ومعصوميتها من الخطأ . وتتشابه مع العديد من اليهود ، نقل مناحيم بیغن السياسة من عالم الحياة اليومية حيث يمكن حتى للفلسطينيين ان يحبوا ويعانوا ويموتوا ويشعروا بالأمل ، الى عالم سفر الرؤيا الجامد العقيم البارد ، حيث العالم قائم بالنسبة لبيغن لمجرد ان يدفع حدوث « محرقه » جديدة يتخيّلها في المستقبل كما يتذكرها في الماضي .

هناك تحليل ثاقب ومتشابك لبنية مناهج وأسس المعرفة الصهيونية كتبه Uri Eeisentzweig في كتابه الاراضي المحتلة في الخيال اليهودي Territoires Occupés dans Imaginaire juif فالصهاينة من اوروبا الغربية ، الذين كانوا يتطلعون الى يوتربيا في فلسطين ، كانوا يتخيلون مكانا غير محدد في فلسطين ، حيث يمكن القضاء على كافة الظروف التاريخية

حيث يمكنهم تحقيق آمالهم هناك ، وكانت افكارهم تستند شيئاً ما الى الافكار الاوروبية الأخرى عن فلسطين ، باعتبارها الأرض المقدسة لأوروبا ، لا باعتبارها أراض يسكنها الفلسطينيون. ومن ناحية أخرى ، فإن صهابته أوروبا الشرقية رأوا في فلسطين تجسيداً لرغبتهم غير الواقعية في إعادة خلق مكان مغلق هو الشتيل schtettl ، يستبعد منه تماماً الغرباء المكرهون المستبدون ، وفي كلتا الحالتين تم استبعاد الفلسطينيين تماماً من فلسطين . ويرى كد الكاتب ان الحقيقة ، في شكل بشر حقيقيين وأشياء حقيقة ، تم تحويلها بقوة الخيال وحدها^(١٤) .

ونظرية ايزنترفايج Uri Eisenzweig معقولة في شرح ما وراء الفكرة الصهيونية عن فلسطين ، او على الأقل فيما يتعلق منها بالسكان الأصليين ، وكيفية التعامل معهم . واعتراضي الوحيد على ايزنترفايج Eisenzweig هو انه لم يكرس الوقت الكافي للنظر الى الكيفية التي كانت تترجم بها هياكل الخيال الى مؤسسات ، وممارسات ، حيث تحول الاسطورة الجماعية عن فلسطين الى ايديولوجيا ، وتحول الایديولوجيا الى ممارسات تفصيلية ، كلها تفترض ان الفلسطينيين سيظلون اشباحاً بلا هوية كاملة ، وبلا حق في المقاومة ، اي قabilin تماماً للاستลاب .

ولننظر مثلاً الى التبريرات الاسرائيلية الرسمية لغزو لبنان ، فترى انها تنبثق من هذه الاتجاهات القديمة مباشرة . ولنأخذ مثلاً الحجة الخاصة بالارهاب وأمن حدود اسرائيل الشمالية . هنا نرى بشرا ، هم الفلسطينيون ، جردوا من كل شيء سوى كُمًّ مجھول اسمه «الارهاب» . حقيقة انهم في لبنان ، لأن اسرائيل أخرجتهم من فلسطين ، مسألة لا تذكر ولا مكان لها في الحجة . والادهى من ذلك ان كل جهود الفلسطينيين في محاولة اقامة هوية وطنية ، انطلاقاً من الدفاع العسكري ، الى الخدمات الاجتماعية والصحية ، والتدريب المهني ، وغيرها ، كلها تتركز في كلمة واحدة مجردة هي البنية الأساسية ، التي لا بد من تدميرها على حد قول الجنرالين شارون وايتان في أكثر من مناسبة . في عبارة أخرى ، يقللون دائماً من شأن النسيج المكثف للحياة الفلسطينية ، لا لأنها تشكل خطراً عسكرياً - محمل الخسائر الاسرائيلية في الأرواح بين لبنان ١٩٦٧ و ١٩٨٢ لم يزد على ٢٨٢ (من مصادر اسرائيلية : انظر ب. ميخائيل «تذكرة بالأرقام والضحايا». ها ارتز، ١٦ يوليو ١٩٨٢) - بينما أدى قصف اسرائيل لبيروت في يوم واحد من اغسطس ١٩٨٢ الى موت ضعف هذا العدد على الأقل - دون ذكر الدمار الذي الحقته اسرائيل بلبنان كبلد - وانما يقللون من شأنه لأن وجود بشر من الفلسطينيين يعيشون ويتنفسون هو في حد ذاته يهدد بانهيار الفكر السائدة المهيمنة عن فلسطين في أذهان العديد من الصهابية ، اي ان فلسطين هي ايريتز اسرائيل ، (ارض اسرائيل) ، ولا شيء غير ذلك .

وقد تم التدليل على هذا المفهوم بشكل واضح عند دخول الجيش الاسرائيلي غرب

بيروت في أواسط سبتمبر ١٩٨٢ ، عقب انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية وائر. مقتل بشير الجميل مباشرة . فالى جانب الموجة الجنونية من السلب والنهب والتبرد التي وصفها لورين جنكنز Loren Jenkins بالتفصيل في واشنطن بوست (٢٩ سبتمبر ١٩٨٢) ، فإن الاسرائيليين تعمدوا تدمير مركز الابحاث الفلسطيني تدميراً متظماً ، بعد ان نقلوا وثائقه ومحروضاته الثقافية الى اسرائيل . بذلك اعتقاد العسكريون الاسرائيليون فعلا انهم يستكملون عملية محو الشعب الفلسطيني ، ماديا ، بمحاولتهم تدمير سجلات تاريخه والاستيلاء عليها . وحتى في كلمات الحمامات الاسرائيلية التي عادة ما تعارض قسم الاراضي ، فإن الفلسطينيين يشكلون لاسرائيل مشكلة ديمografية تهدد طابعها اليهودي : هذه هي نظرتهم اليانا ، نظرة تفوق بكثير النظرة الى التطلعات السياسية للفلسطينيين المستلبيين .



يصف كارك شورسكي Carl Shorske تأثير عزف موسيقى لفاجنر WAGNER على ثيودور هيرتزل Theodor Herzl ، فيقول : « لم يكن هرتزل من المتعصبين لفاجنر ، بل ولم يكن اكثراً من غيره من اهل فيينا ترددوا على الأوبرا ، ولكنه في هذه المرة (١٨٩٧) كمن مسه تيار كهربائي عندما استمع الى تانهوizer Tannhauser . عاد الى بيته متتشيا ، وجلس في حمام محموم يرسم الخطوط العريضة لحلمه الخاص بانفصال اليهود عن اوروبا. ان يتسبب فاجنر في انطلاق طاقات هرتزل لتصب في تيار من الابداع : يا لها من سخرية ، ومع ذلك فیا له من رد فعل نفسي مناسب ! ... تانهوizer ، الحاج الرومانسي ، الذي سعى هباء الى الحصول على مساعدة البابا له فيما يعانيه من ازمة ضمير مسيحية ، ثم عاد فاکد اصالته الشخصية بأن تمسك بحبه الديني الذي كان قد حاول التخلص منه دون جدوی . فهل رأى هرتزل في تحرر تانهوizer الاخلاقي وعودته الى الغار شيئاً مماثلاً لعودته هو الى الجيتوي Chetto ? من يدری ... اندفع هيرتزل بعد ذلك نحو قطبيته عن العالم الليبرالي ، ونحو انفصال اليهود عن اوروبا . اذن تصبح الحركة الصهيونية بمثابة الخلق الفني المتكامل ، أي Gesamtkunswerk للسياسات الجديدة ، ولقد شعر هرتزل نفسه بذلك عندما قال : « ان من يقارن هجرة موسى بهجرتي ، كمن يقارن اناشيد هانز زكس Hans Sachs الدينية بأوبرا فاجنر . »

الناظر الى الصهيونية ، تلك الحركة التي اسسها هرتزل ، يجد فيها هذه النزعـة المسرحية نفسها ، والافتتان بالذات . ومن وجہ نظر الفلسطينيين ، في اواخر القرن العشرين ، فإن الصهيونية مارست جل نشاطها في الغرب ، حيث لم تبد هناك علاقة بين أمجاد الثقافة اليهودية الرائدة التي « تحيل الصحراء الى جنان » في فلسطين المختلفة ، وبين الاستلام التدريجي الذي بلغ ذروته في كوارث مرحلة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٨٢ . فتحن الفلسطينيين لم نظهر في الصورة مطلقاً . وعندما كنا نظهر بين الحين والحين كعرب محللين ، او كارهابيين ، كانوا يشعروننا بوضوح بالشوـط الذي لا بد أن نقطعه ، ومدى ما يجب أن نفعله ، حتى يعترفوا

بمجرد حقيقة وجودنا ، ناهيك عن اكتساب اعجابهم وودهم . حيثما اتجهنا ، او نظرنا ، وجدنا مديرى المسرح يتحكمون تماما في مجلل خيوط الأحداث ، اي في الخلق الفنى المتكامل Gesamtkunswerk . فالصهيونية تتكلم بلغتهم وتتحدث بمفهومهم ، بل وأسهمت في تكوين تاريخ الغرب الذى أعلنت انها جزء لا يتجزأ منه لأنها اعتبرت نفسها سدا يحول دونه ودون البرابرة الآسيويين (ثم دونه ودون البرابرة الشيوعيين) ، فمنعتهم من تعكير صفو مدينة الغرب الراضية . ان الالتحام العنيف بين التاريخ والزمن ، هذا الالتحام الذى كتب عنه جون برجر John Berger بفهم عميق ، تحقق بالفعل^(١٥) . ولم يعكس صفو احداث اسرائيل المسرحية شيء حتى منتصف السبعينيات . ولكن حوافي الصورة بدأت تبدو مهلهلة ، وتبدو غير حقيقة مع تزايد القمع الذى تمارسه سلطة الاحتلال العسكري ومع تزايد حجم القومية الفلسطينية ورسوخها . بل وان الاساليب نفسها والتي لجأت اليها اسرائيل لتصنع صورتها في نظر نفسها ، وفي نظر العالم - صور في وسائل الاعلام الجماهيرية ، وألمعية وعالمية البلاعة ، وادعاؤها انها تجسد القيم الغربية الانسانية والديمقراطية . هذه الاساليب بدأ يشوبها التشوش من جراء قسوة معاملة الجنود الاسرائيليين للمدنيين ، و بشاعة جماعة غوش ايمونيم الدينية المتطرفة ، وممارسات القوة العسكرية الاسرائيلية في حجم ما تأتيه من أعمال تدميرية ، والتلوسية التي لا تكل من قبل بيعن وشركاه ، وتجاهل اسرائيل للرأي العام العالمي . وعلى الرغم من ادعاءات الولايات المتحدة أن كامب ديفيد اتت بالسلام ، الا انه من الواضح بعد عام ١٩٧٩ ان نظرة اسرائيل للسلام مع السادات انطوت على احتقار لمصر من ناحية ، وعلى استعداد لتطبيق سياسة « وبعدى الطوفان » في بقية اجزاء العالم العربي ، من ناحية اخرى .

ليس هذا بمجال سرد كل خطوة من خطوات الكيفية التي فقدت بها اسرائيل سعادتها الايديولوجية على المسرح العالمي ، وانما لا بد من التشديد على انه فقدان لم يكن منه مفر ، فهو بمثابة برهان كلاسيكي للقاعدة القائلة ان تصوير الأمور بشكل يتعدى اخفاء اكثر من نصف الحقيقة لا يمكن ان يدوم طويلا . لسنوات طوال ادعت اسرائيل ان العرب هم الذين يرفضون اسرائيل (وهذا صحيح) وان هذه هي المشكلة برمتها (وهذا غير صحيح) . ابدا لم يرد ذكر الفلسطينيين ، ولولا غيابهم ما امكن لاسرائيل ان تصور نفسها كدولة غربية ، انسانية وديمقراطية . اذن فمجرد استمرار وجود الفلسطينيين كان يهدد بتفنيده هذا الادعاء ، وسرعان ما ادرك بيعن وشارون ، عند غزو لبنان سنة ١٩٨٢ ، ضرورة محو هذا الوجود .

لم يحدث لحرب من حروب اسرائيل ان سبقتها عملية تشكيك في وسائل الاعلام الجماهيرية كما حدث بالنسبة للحرب الاخيرة ، لأن وسائل الاعلام ذاتها ، هذه التي كانت في الماضي تركز انتظارها على انجازات اسرائيل المقنعة شكلًا ، وكانت تتتجاهل الحقيقة الخفية الا وهي سياسة الاستلال التي تمارسها اسرائيل ازاء الفلسطينيين ، اصبح لا مفر لهذه الوسائل من ان تنظر الى اسرائيل وهي تمارس العنف ضد الفلسطينيين ، الذين بدوا الآن في شكل ند

واضح ، وإن كان غير متكافئ بعد . إن جوهر حملة الصهيونية ضد وسائل الاعلام هو تماماً نقىض ما كانت عليه حملة الصهيونية لصالح وسائل الاعلام من قبل : في الماضي كانت الصهيونية تقول لنا : شاهدوا ما نفعل وتجاهلوا ما لا ترونـه . أما الآن فاصبحت تقول : تجاهلوا ما ترونـه ، وركزوا على ما لا تستطعون روـيـته ، اي الارهاب الدولي ، وتصف شمال اسرائـيل ، الخ ... حتى وان دلت الشواهد كلها ، والواقع ، على عكس ما تدعي اسرائـيل ، الا ان اسرائـيل ومؤيديها طالبوا العالم بانكار ما يلمسه بحواسـه ... والا فـإن كل من يرفض تكذيب ما يراه بنفسـه يتهم بمعادات السامية ، وتوجه له التهمـة بهستيرية حادة من جانب المتطرفـين من أمثلـة مارتين بيريتـز Martin Perez ، ونورمان بودورـتز Norman Podhoretz . بل ان الأخير ، وقد عـرف بصفاتهـ في انتهـاك كل أصولـ الجـدل ، ذهب الى ما هو أبعدـ من ذلك ، فادعـى ان توجـهـهـ النقدـ الى اسرائـيلـ هو دليلـ على تـخـاذـلـ الغـربـ .

حاول المدافعون عن اسرائـيلـ في عام ١٩٨٢ رفعـ أصواتـهمـ في كورـالـ منـسـقـ ليـقلـلـواـ منـ مـدلـولـ مـمارـسـاتـ اسرـائيلـ ضدـ الفـلـسـطـينـيـنـ ، تلكـ المـمارـسـاتـ التيـ بلـغـتـ ذـرـوـتهاـ بمـذاـبـحـ صـبراـ وـشـاتـيلاـ . وـتسـاءـلـواـ : لـمـاـذـاـ يـرـكـزـ الجـمـيعـ عـلـىـ ضـحـاياـ اـسـرـايـيلـ ، بـيـنـماـ مـاتـ عـدـدـ أـكـبـرـ مـنـ ذـلـكـ بـكـثـيرـ فـيـ شـرـقـ تـيمـورـ فـيـ الحـرـبـ الـاـيـرـانـيـةـ -ـ العـرـاقـيـةـ ، وـفـيـ حـمـاءـ ، وـخـلالـ ، الحـرـبـ الـأـهـلـيـةـ فـيـ لـبـانـ ؟ سـؤـالـ لـيـسـ فـيـ مـنـ الـبرـاءـةـ شـيءـ ، وـلـاـ أـعـنـيـ بـذـلـكـ أـنـ وـسـائـلـ الـاعـلـامـ الـغـرـبـيـةـ كـانـتـ أـمـيـنةـ أـوـ غـيرـ مـنـافـقةـ ، فـهـيـ لـيـسـ أـمـيـنةـ ، وـغـيرـ مـنـافـقةـ ، وـلـمـ تـكـأـ أـبـداـ ، وـلـكـنـ الـفـلـسـطـينـيـ يـفـهـمـ الـآنـ بـالـسـلـيـقـةـ أـنـ جـزـءـ كـبـيرـاـ مـنـ مـشـرـوعـ اـسـرـايـيلـ كـانـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ حـضـورـهاـ الـمـسـرـحـيـ أـمـامـ نـظـرـ الـعـالـمـ . اـنـظـرـوـاـ إـلـيـنـاـ ، شـاهـدـواـ مـاـ نـفـعـلـ ، اـنـظـرـوـاـ إـلـىـ مـدـىـ رـيـادـتـاـ وـمـدـىـ غـرـبـيتـاـ وـمـدـىـ اـنـسـانـيتـاـ وـمـدـىـ دـيمـقـراـطـيـتـاـ . وـمـنـ غـيرـ الـمـعـقـولـ أـنـ تـكـفـ هـذـهـ الطـنـطـنـةـ الـمـسـرـحـيـةـ ، فـجـأـةـ ، فـيـ الـلحـظـةـ الـتـيـ بـدـاـ فـيـهاـ التـنـاقـضـ وـاضـحـاـ بـيـنـ الـصـورـةـ الـاـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ الـتـيـ تـعـكـسـهاـ اـسـرـايـيلـ عـنـ نـفـسـهاـ وـبـيـنـ اـدـعـاءـهـاـ . مـشـاهـدـ الجنـدـ اـسـرـايـيلـيـنـ وـهـمـ يـتـسـبـبـونـ فـيـ مـوـتـ وـدـمـارـ الـمـدـنـيـنـ تـوـالتـ فـيـ الـحـيـزـ الصـغـيرـ نـفـسـهـ الـذـيـ شـاهـدـ فـيـ الـعـالـمـ ، مـنـ قـبـلـ ، صـورـاـ لـلـرـوـادـ اـسـرـايـيلـيـنـ يـحـتـلـونـ الـصـدـارـةـ عـلـىـ الـمـسـرـحـ . شـيءـ مـاـ تـغـيـرـ بـصـورـةـ عـمـيقـةـ .

التـغـيـرـ لمـ يـفـدـ الـفـلـسـطـينـيـنـ فـيـ كـثـيرـ ، فـهـمـ بـعـدـ مـسـتـلـبـونـ . وـلـكـنـ هـذـهـ قـصـةـ أـخـرىـ ، لـاـ هـيـ بـالـنظـرـيـةـ وـلـاـ بـالـاـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ ، لـاـ بـدـ مـنـ سـرـدـهـاـ بـالـطـبـعـ ، وـلـكـنـ عـلـىـ أـرـضـيـةـ اـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ ثـقـافـيـةـ تـخـتـلـفـ عـنـ اـرـضـيـةـ رـدـ الـفـعـلـ الـتـيـ شـعـرـتـ بـاـتـعـادـ اـسـرـايـيلـ عـنـهـاـ . وـأـنـأـقـولـ : نـحنـ مـوـجـودـونـ لـاـ بـسـبـبـ مـاـ فـعـلـهـ اـسـرـايـيلـ بـنـاـ ، وـلـكـنـ اـنـطـلـاقـاـ مـنـ الرـؤـيـةـ الـعـرـبـيـةـ الـحـالـيـةـ الـوـحـيـدـةـ الـتـيـ تـسـمـ بـالـعـلـمـانـيـةـ وـبـالـإـيمـانـ بـوـحـدةـ الـمـصـبـرـ . وـاـنـمـاـ لـاـ بـدـ هـنـاـ مـنـ خـاتـمـةـ مـوجـزةـ لـنـقـطـةـ النـهاـيـةـ الـاـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ الـتـيـ وـضـعـتـهـاـ كـوارـثـ ١٩٨٢ـ . فـهـذـاـ التـارـيخـ ، رـغـمـ مـاـ قـدـ يـتـبـعـهـ مـنـ مـبـالـغـةـ ، يـقـدـمـ الدـلـلـ عـلـىـ أـنـ الـبـعـدـ الـاـيـدـيـوـلـوـجـيـ قدـ يـسـبـقـ الـوـاقـعـ وـيـمـهـدـ لـهـ . فـعـلـىـ مـرـثـلـةـ عـقـودـ قـبـلـ ١٩٤٨ـ ، نـجـحـتـ الـتـيـارـاتـ الـاـيـدـيـوـلـوـجـيـةـ الـكـبـرـىـ لـلـصـهـيـونـيـةـ فـيـ أـنـ تـسـتـلـبـ الـفـلـسـطـينـيـنـ ، وـفـيـ الـعـامـ ١٩٤٨ـ لـحـقـ

الواقع بارهاصاته . وبعد ذلك بثلاثة عقود تفككت الصورة الايديولوجية التي صنعتها اسرائيل لنفسها عندما احتبت بمشاهد ادائها الاسرائيليون لمجرد انها مشاهد .

والآن ، وأنا اكتب في نهاية العام ١٩٨٢ ، نجد انفسنا في لحظة برز فيها شيئاً ، لأول مرة في تاريخ الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين . شيئاً سيغيران معاً مجريات الأمور بغير رجعة . شيئاً لا بد وأن يحددا معاً مستقبل التاريخ الفلسطيني ، والا كان هناك تاريخ فلسطيني يذكر . الشيء الجديد الأول هو ظهور مجموعة من اليهود ، وأنصار الصهيونية ، والمواطنين الاسرائيليين ، الذين فقدوا ولاءهم ، ومجموعة من الفلسطينيين الذين اكتسبوا وعيًا كاملاً . أما الشيء الجديد الثاني فهو افتتاح حيز ايديولوجي - ثقافي - سياسي يسمع ، للمرة الأولى ، بمناقشة القضية الفلسطينية والتعامل معها من منطلق مفهومها هي ، وليس باعتبارها مجرد عنصر من عناصر التنافس بين القوى العظمى ، ولا من عناصر ما يسمى الصراع العربي - الاسرائيلي .

ان الدفاع عن بيروت ثم سقوطها ، اطاح بالكثير ، بما في ذلك بقايا الأيمان بالولايات المتحدة ، التي لم تحترم حتى التزامها بضمان سلامه الفلسطينيين الباقيين بعد انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية . فكما قلت من قبل ، ادى كل ذلك الى خلق تشكيلات سياسية جديدة على ارضية سياسية جديدة . لقد وضعت الحدود دولياً واقليمياً للمدى الذي يمكن لاسرائيل فيه أن تستمر في ابادة الفلسطينيين : وطلت منظمة التحرير سليمة باعتبارها التعبير السياسي الفعلى للقومية الفلسطينية ، على الرغم من أعمال شارون الاجرامية ، وعلى الرغم من محاولات ثبيت روابط القرى . لقد ظهر التشتت والاستلاب بوضوح في مرحلة ما بعد بيروت . وعلى الرغم من صعوبة تصور حل عسكري حقيقي في المستقبل القريب ، وصعوبة تصور ردع عربي جاد ، فإنه يوجد ، ايضاً ، ايديولوجياً وجد الفلسطينيون . وبخاصة في لبنان وفي الأرضي العربية المحتلة . الضغط السياسي الرامي الى ايجاد حل للمسألة الفلسطينية ، ولكنه ضغط يمارس بأساليب تهدف الى تحويل الفلسطينيين الى ارقام احصائية حتى تمتفهم في صمت ، وتدخلهم اطار مخططات الغير . فرونالد ریغان يريد لهم أن يتحدوا والأردن . واسرائيل تريدهم مواطنين لا ينسون بيت شفة ، وبعض العرب يريدونهم رأس حربة في الحروب التي لا يستطيعون او لا يرغبون خوضها .

من الجوهرى اذن لمعظم القوة الباقة التي دافعت عن بيروت ان توجه نحو صياغة برنامج سياسي فلسطيني واضح . فنظرتنا ، تاريخنا ، عن وجهتنا في المستقبل كانت تتضمن بعض الشوائب ، كالتعويل على ماض غير مقبول ، والتهجم على العدو ، والتصريحات الايديولوجية التي تستهدف تقارب المجموعات العربية ، بل وحتى الفلسطينية المتناقضة . لا عودة الى هذا الاسلوب المشوب . ومجموعتنا ، بعد عدم استجابة العرب لما حدث في لبنان ، لا هي بالمجموعة القديمة ، ولا هي بمجموعة تم انقاد حطامها . فهناك أولاً مجموعة

فلسطينية انبثقت من خارج دروب الروتين والموافق والبني الرسمية العقيمة . وهذه المجموعة لا يمكنها أن تترعرع الا تحت قيادة تشعر بمحكوناتها ، وتحس بمطالبها التجددية ، وبالمناورات الجديدة التي تسمح بها مثل هذه المجموعة . أما المجموعة الأخرى ، الجوهريّة ، فهي مجموعة اليهود الاسرائيليين وغير الاسرائيليين ، الذين اعترضوا على الأوضاع الحالية ، واعتبروها تؤدي الى كارثة .

وفضلا على ذلك ، فإن ضياع بيروت كبديل للفلسطينين ، واقتراض عدد من الأماكن الأخرى للهجرة يشدد التركيز على الأراضي المحتلة ، أي على البقية الباقية من فلسطين ، التي ما زال الفلسطينيون يعيشون فيها . والقضية الملحة الآن تصبح قضية ابقاء هؤلاء الفلسطينيين هناك ، بالرغم من ، بل بسبب ان الاسرائيليين يريدون اخراجهم جميعا ؛ ابقاءهم وتتوسيع ، الاطار القانوني والثقافي والسياسي الذي يعيشون فيه . وهنا أيضا لم تعد الصيغة القديمة قابلة للتطبيق ، كما اتضحت من الكوارث التي اعقبت كامب ديفيد . فالنزاع في فلسطين ليس مجرد نزاع على الأرض : وهذه حقيقة غير قابلة للتحوير الاستراتيجي ، ولا الساداتي ، ولا الكيسنجرى . هناك نزاع جذري بين رأي قائل بأن لليهود حقوقا تفوق حقوق غير اليهود : وهناك رأي آخر لا بد أن يصاغ بقوة ومنطقية هو أهل لها : رأي يقول ان كل المجموعات ، والأفراد الموجودين حاليا ، لهم في فلسطين حقوق مدنية لا بد وان تكون متساوية من حيث البدأ . كل خروج على هذا الرأي أتى بالنكبات على الطرفين معا . فالحاجة الى سياسات جديدة في الأراضي المحتلة هي الحاجة الى نظرية جديدة فعالة لمحاربة قاعدة الاستثناء المستبدة التي تسمح بتاليه مطالب مجموعة ، بينما لا تسمح لمطالب المجموعة الأخرى بالظهور الآ بين الحين والحين .

لا يوجد في كل ما جاء هنا ما يبرر تبسيط المهام الواقعية على عاتقنا ، فهي مهام تفوق الخيال في تعقدتها . ولا يوجد فلسطيني يخشى الاعتراف بأن النضال الذي نواجهه قد يكون أكبر حجماً منا بكثير . وكل مسرح سياسي يمكنه ان يستوعب دوامة القومية العربية ، والصهيونية ، وتاريخ معاداة السامية ، ومناهضة الاستعمار ، والتيار الإسلامي واليهودي ، والنظرية المسيحية التقليدية لسفر الرؤيا ، والقضاء على الاستعمار والامبرالية ، ومخاطر الدمار النووي ، وكافة صنوف انحطاط وعظمة البشر . مثل هذا المسرح يكون فعلا مسرحاً مبشراً ببداية فترة تاريخية جديدة . وان يكون المرء فلسطينيا هو أن يقف عند نقطة التقاء هذه القوى ، فاما ان تكتسح او أن يجد وسيلة لفهمها وتوظيفها بشكل بناء . اذا لم يكن الحل العسكري الاسرائيلي مجديا ، وإذا لم ينفع الحل الأمريكي او العربي التجميلي ، فهذه هي اللحظة المحددة التي يجب على الفلسطينيين فيها ، جماعة ، أن يستعينوا بكلفة الوسائل المتاحة لهم ليتقدموا بما يجدي فعلا . فنادرًا ما حدث في تاريخ البشر أن اكتسبت صياغة برنامج مثل هذه الأهمية الثورية البعيدة المدى ، ولكن من النادر ايضاً ما اعتمدت الهوية السياسية لشعب على

مثل هذه العملية الجماعية ، التي تتطوي على حسابات وأحكام واستقراءات ولم شتاتٍ - وهذا على الرغم من الجيوش والدول ، وعلى الرغم من الأوضاع السائدة المؤسفة .

نيويورك نوفمبر ١٩٨٢

ترجمة : نهى سالم

إ. شارات :

(١) ميشيل خليفة ، الذاكرة الخصبة ، أفلام ماريزا ، بروكلين ، ١٩٨٠

(٢) جاكوبو تيرمان ، تأملات في لبنان ، مجلة نيويوركر ، ١٨ أكتوبر و ٢٥ أكتوبر ١٩٨٢ .

(٣) يوهانس فابيان ، الزمن والأخر : كيف تصنع الانثروبولوجيا موضوعها (نيويورك : مطبعة جامعة كولومبيا ، ١٩٨٣) .

(٤) ترستان تيدوروف ، غزو أمريكا : مسألة الآخر (باريس ، لي سوي ١٩٨٢) بارتميتر ، الوحوش المفترى عليها : تاريخ رد الفعل الأوروبي للفن الهندي (مطبعة كلاريندو : اوكتافور ١٩٧٧) ؛ دوروثي هاموندو اتلاجابلو ، افريقيا التي لم تكن أبداً : أربعة قرون من الكتابات البريطانية عن افريقيا (نيويورك : توبن ، ١٩٧٠) . انظر أيضاً س.هـ . النافاس ، اسطورة ابن البلد الكسول (لندن : فرانك كاس ، ١٩٧٧) وادوار سعيد الاستشراق (نيويورك : باتشون ، ١٩٧٨) .

(٥) ا.ل. طياوي ، المصالح البريطانية في فلسطين ، ١٨٠٠ - ١٩٠١ (مطبعة جامعة اوكتافور ، ١٩٦١) ، صفحة ٣٧ . وما يليها .

(٦) سارة جراهام براون ، الفلسطينيون ومجتمعهم ، ١٩٤٦ - ١٩٨٠ : دراسة فوتوجرافية (لندن : كتب كوارتيت ، ١٩٨٠) .

(٧) انظر الاستشراق ، مشار إليه آنفاً ، ص ٢١٤ .

(٨) جيرار ليكلير ، تأملات في الإنسان : تاريخ للتحقيقات الاجتماعية (باريس - لي سوي ، ١٩٧٩) ، ص ٣١ .

(٩) غاستون باشلار ، الأرض وأحلام الارادة (باريس : جوزي كورتي ، ١٩٤٨) .

(١٠) ورد في كريستوفر ساكس ، مفترق الطرق إلى إسرائيل ، ١٩١٧ - ١٩٤٥ (بليمنجتون : مطبعة جامعة إنديانا ، ١٩٧٣) ، ص ٥ .

(١١) ارثر هرتزبرج الفكرية الصهيونية (نيويورك : اثيرنيوم ، ١٩٧٦) .

(١٢) ارثر هرتزبرج ، «المأساة والأمل» . مجلة نيويورك ريفيو اوف بووكس ، ٢١ أكتوبر ١٩٨٢ .

(١٣) مارك هلبرين ، «اليهود الأميركيون وإسرائيل : اغتنام فرصة جديدة» ، مجلة نيويورك تايمز ، ٧ نوفمبر ١٩٨٢ .

(١٤) بوري ايزنرفايج ، الاراضي المحتلة في الخيال اليهودي : دراسة حول العجز الصهيوني (باريس / كريستيان بورجو ، ١٩٨٠) ص ١٤ و ١٥ .

(١٥) جون برج وجان موهر ، طريقة أخرى للسرد (نيويورك : باثشون ، ١٩٨٢) ، ص ١٠٥ .

(١٦) كارل شورسكي ، نهاية القرن - فيينا : سياسة وثقافة (نيويورك ، كنوف ، ١٩٨٠) ، ص ١٦٣ .